

نشعر بما كانت تعجّ به نفوسنا من لغط النوازع والدوافع المشوّشة، بل اختفى كل لغط واختفت كل فوضى لغرائزنا وميولنا وأهوائنا الباطنة، وعمّ تساوق وتآلف عجيبان، هما مصدر شعورنا بالمتعة حين نقرأ الشعر أو نستمع إليه.

ويعقدار هذا التساوق والتآلف وما يتضمنانه من نسب النغم يكون تأثير الشعر في نفوسنا قوّة وضعفًا، فإذا تكاملت هذه النسب قوَى تنسيقها لحياتنا النفسية الداخلية ونوازعها ورغباتها، وأحسسنا كأن نفوسنا خلت من كل تشويش وكل اضطراب وفوضى، وعادت إلى فطرتها السوية التي تتآلف فيها تلك الرغبات والنوازع بقسطاس مستقيم، يمنع بعضها أن يطغى على بعض، أما إذا ضعفت نسب التآلف والتساوق النغمي فسرعان ما تدب الفوضى ويدب التشويش ثانية إلى نوازعنا وخواطرننا وخوالجنا، إذ سرعان ما يبغى بعضها على بعض، وسرعان ما تمتنع على التناسق وسرعان ما نعود إلى الاتصال بحياتنا اليومية وترهاتها ونوازعها الجاحمة وغير الجاحمة، فقد حرّمنا في الشعر من النظام النغمي المتكامل الذي يؤثر بشداه الموسيقى في دخائلنا تأثيرًا عميقًا، تأثيرًا ينقلنا من عالمنا اليومي الوقتي إلى عالم جديد، أشبه ما يكون بعالم الرؤى والأحلام، عالم تتآلف فيه إحساساتنا ومشاعرنا وغرائزنا ودوافعنا وتتجانس ويعود إليها نسقها الفطري الطبيعي.

ولعل لغة لم يتكامل فيها الإيقاع الموسيقى ونسقه النغمي كما تكامل في عربيتنا العريقة، ومعروف أن اليونان والرومان اعتدوا في أشعارهم بالوزن، ولكنهم لم يعرفوا نظام القافية، وعرفه الفرنسيون في البحر الإسكندري والإنجليز في بعض صور شعرهم الغنائي وهم لا يقيسون شعرهم بعدد المقاطع مثل الفرنسيين والرومان واليونان وإنما يقيسونه بالمقاطع المضغوطة، وشاع عندهم الشعر المرسل المتحرر من القافية، كما شاع عند الفرنسيين منذ شعرائهم الرمزيين الشعر الحر. وإذا رجعنا إلى شعرنا العربي وتاريخه الطويل وجدنا الإيقاع الموسيقى يتكامل فيه بصورة لم يعرفها الشعر الغربي على مدار أزمنته وعصوره، فالقصيدة منه تأتلف من أبيات متّحدة في الوزن والقافية في نظام نغمي